لم يقل العجوز شيئاً، ولم يتحرك: «لم يصلني غير ثمانمئة ليرة، وكان الآخرون سيبيعون على كل حال، وما كان بوسعي فعل أي شيء. ولقد سرقنا اولئك الخنازير. لقد دفعوا في خبيرة ست ليرات بالدونم وخمسمئة للمختار».

قال ذلك باصرار، وكأنه يريد ان يثبت لقرائه الاوروبيين ان العرب لم يكن همّهم الّا ان يبيعوا اراضيهم، وما كانوا ليترددوا الّا انتظاراً لفرصة دفع أكثر. طبعاً ما ان تظهر هذه المعزوفة حتى تتلقفها بقية الكتب التي تنشر باشراف الحركة الصهونية ـ وهي لا تحصى ـ فتجعل الخطأ صواباً واقعاً لا يمارى فيه، فيما يغط الرأي المضاد في نوم المتخلّفين العميق.

لم يقل العجوز شيئاً. رجع الى غرفته وقد ازداد همّه، والابن قال لنفسه: «ما بوسعي أن أفعل ؟».

حاول ان يؤكد دائماً ان العرب لم يكونوا يصنعون شيئاً، فالطريق الذي يجتازه المختار يومياً في دورته القروية ذاته من أيام الرومان، حفظه عن ظهر قلب، يمرّ فيتجنب الحفر الصغيرة دون ان يتطلع أين تدوس قدماه.

عندما أتي الحديث عن الزراعة أكد ان شيئاً لم يكن مزروعاً. كانت فلسطين عنده شبه صحراء، مع ان فلسطين باعت سنة ١٩٠٠ مليون ونصف المليون صندوق من الحمضيات. وغني عن القول ان الجليل لا يمكن الّا وان يكون اخضر، ما دامت نسبة المطر فيه سنوياً متراً أو تزيد.

صباح وصول المعمّرين الى «برج عذرا»، وبعد ان اقاموا برج مراقبة الجوار والتحركات التي يمكن ان يقوم بهـا العرب، نزل المختار الى القرية، فمر بالشارع الوحيد، وحيّا بعض الوجوه، وسألهم عن أحوالهم وأحوال عائلاتهم واعمالهم. غير ان أحداً لم يحاوره، أو ينبس ببنت شفة، عمّا يجرى على هضبة الكلاب: «ومع ذلك، فقد يمتد عليهم الظل. كانوا يعرفون جميعاً القرار الذي يجب ان يتخذه المختار وغسلوا منه ايديهم؛ هؤلاء الجبناء الانذال، لعلهم يستطيعون القول فيما بعد، أنهم لم يأخذوا علماً بشيء ممّا يمكن ان يحدث في الليلة المقبلة... هذا اذا حصل شيء».

لقد كان موكّلاً باتخاذ القرار وحده؛ فالناس يتهرّبون جميعاً من تحمّل أية مسؤولية. أراد ان يقول ان الروح الديمقراطية غير موجودة عندنا أصلاً، بل ولا يمكن ان توجد. اننا، بتكويننا النفسي الاجتماعي، لا نستطيع اختيارها.

أبوه طعن في العمر، فبات غير قادر على ابداء الرأي. أما «ابنه البكر، ذلك الضبع المجدور، فما يحلم بسوى المال، لعلّه يستطيع ارتياد بيوت الدعارة في سوريا. ولقد كان ينتظر بفارغ الصبر ان تشنق الحكومة أباه، أو ان يقتله الوطنيون العرب».

لم يكن امام المختار الّا هؤلاء. لقد استطاع، حتى الآن، ان يقصيهم عن الطابغة، فما كانوا يظهرون فيها الّا ليلاً، حين يأتي اثنان أو ثلاثة كي يأخذوا منها ما فرض عليها من غنم وبرغل وسمن وسواها، كتموين للثوار الذين يقودهم فوزي القاوقجي. وكانت القرية تدفع لهم راغمة، غير راضية.

كان المختار يدّعي بأن البهائم التي تنقص يسطو عليها فيسرقها اللصوص، وما كان بوسع السلطة ان تثبت عليه شيئاً. فقد تمكن، بوسيلة نفاق وأخرى، ان يحوز على ثقتها.

ذكر كوستلر ان الثورة العربية في فلسطين لم يكن لها من هدف الّا ذبح اليهود، وانها لا خلاف بينها وبين الانكليز ما عدا مفارقات هيّنة، ليست بذات بال. ولقد كانت السلطات تهدم بيوت المتعاملين من السكان مع الثوار، ارهاباً، غير ان البنك العربي يدفع ثمن اقامة غيرها بسخاء، فتقوم البيوت الحديثة مكان المغائر الطينيّة. ولذلك كان الخبثاء لا يعدمون الوسيلة التي تؤول بالسلطة الى هدم بيوتهم حتى تقوم على انقاضها بيوت سكنها معقول. ومتى علم القارىء ان الاوروبي العادي ـ حين يقرأ ـ يتصور ان الواقع قريب من ذلك.

وكان المختار يضع في مكان الصدارة من غرفته صورة المستر تشمبرلين وعليها خرز ازرق كي لا تصيبه العين، كي يثبت للانكليز وفاءه لهم، ويحدث ذلك في تفاهم غير معلن مع ناس القرية.